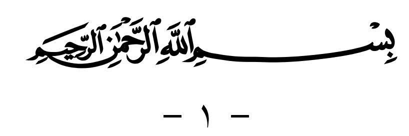


الحرِيريّة والباجُرْبَقية: دراسة تحليلية في الفكر والسلوك الصوفي

إعداد: د. عبد الرزَّاق محمد

مدرس الفلسفة الإسلامية

في كلية دار العلوم – جامعة القاهرة



– ١ –

تمهيد

إن كان التصوف في الإسلام يدين إلى القرن الثالث في نشوئه من حيث هو سلوك روحي يتجاوز مفهوم "الزهد"، فلعلَّه لم يمض عليه عصر منذ ذلك الحين كان أعمق أثرًا في تصوراته الفكرية، أو نظرياته الفلسفية، أو رياضاته العملية، أو نظمه الاجتماعية، من القرن السابع.

في هذا العصر استقر مفهوم "وحدة الوجود"، أو "التصوف الوجودي"، عند محيي الدين بن عربي (ت: ٦٣٨هـ)، الذي ختم سلسلة تمهيداتٍ تاريخية تتابعت منذ نهاية القرن الثالث عند الحلاج (ت: ٣٠٩هـ)، وابن مسرة (ت: ٣١٩هـ)، ثم أحمد الغزالي (ت: ٥٢٠هـ) وعين القضاة الهمذاني (ت: ٥٢٥هـ)، ثم ابن قسي (ت:

٥٤٦هـ) وأبي مَدْيَن الغوث التِّلِمْساني (ت: ٥٩٤هـ)، حتى استوى التصوف الأكبري مذهبًا قائمًا، له أتباعه ومريدوه إلى مشارف العصر الحاضر.

وفي هذا العصر، كذلك، رسخ الحضور الاجتماعي للطرق الصوفية، بعد أن ظهرت طائفة من كبار شيوخها، مثل عبد القادر الجيلاني (ت: ٥٦١هـ)، وأبي العباس أحمد الرفاعي الكبير (ت: ٥٧٨هـ)، وأبي الحسن الشاذلي (ت: ٦٥٦هـ)، وأحمد البدوي (ت: ٦٧٥هـ)، وإبراهيم الدسوقي القرشي (ت: ٦٧٦هـ).

وما لبث أن تطور مظهر شعبي آخر للحياة الصوفية في "مفهوم الفتوَّة"، وهو معنى صاحَبَ التصوف منذ أدواره الأولى، ثم جدَّ عليه ما كاد يخرجه من الدائرة الخلقية جملة، حتى انتسب إليه، سنة ٥٧٨هـ، الناصر لدين الله ابن الخليفة العباسي المستضيء، ولبس سَراويلَ الفتيان؛ فبُعِث حينئذٍ بعثًا جديدًا، وانتشر في النواحي حتى "تفتَّى" الأصاغر والأكابر[١].

فإذا أضيف إلى هذا كله ظهور ما عُرِف بـ"طريقة المتأخِّرين" في الفكر الكلامي منذ فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٦هـ)[٢]، والنوازل السياسية والحربية الكبرى بسقوط بغداد في المشرق (٦٥٦هـ) وانهزام محمد الناصر (ت: ٦١٠هـ) في "موقعة العقاب" (٦٠٩هـ)، وما تلاهما من سقوط الحواضر الأندلسية في قرطبة (٦٣٣هـ) وبلنسية (٦٣٦هـ)، إذا أضيف هذا كله إلى تطور الحياة الروحية فلا عَجَب أن يكون القرن السابع من أخطر العصور في تاريخ التمدُّن الإسلامي على العُمُوم.

---

(١) انظر- ابن المعمار البغدادي الحنبلي (ت: ٦٤٢هـ): كتاب الفتوة، تحقيق مصطفى جواد وآخَرِين، بغداد، ١٩٥٨-١٩٦٠، ص١٤٧، ومقدمة مصطفى جواد، ص (٥٢-٥٣)

(٢) انظر: مقدمة ابن خلدون تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، القاهرة، دار نهضة مصر، ط. الثالثة، ١٩٨١، جـ٣ ص١٠٨٢؛ إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية- منهج ونطبيقه، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٣، جـ٢ ص٧

وفي هذا التشكُّل الجديد لمناهج الفكر الإسلامي ظهرت حلقات فكرية صغيرة، اجتمعت حول شيوخ لها، لم تخلُ منازعهم الروحية من غرابةٍ أو إخلال بشيءٍ من الآداب المتبعة أو الأعراف الجارية، ولم يخلُ بعض المنتسبين إليها أيضًا من موهبة أدبية أو تمتع بملكاتٍ فكريَّة عالية، وكذلك تبعتها فئامٌ من العامَّة استهواها ما كانت تأخذ به من فنون اللهو وما شاع عنها من وُجُوه الترخُّص والمساهَلة.

حاولت هذه الحلقات أن تستقر وأن تتصل أجيالها فلم يقدَّر لمعظمها ذلك، وسرعان ما تلاشت في الجيل الثاني بعد وفاة مؤسِّسيها، ومنها حلقة الشيخ أبي الحَسَن البُسْري الحَرِيري (ت: ٦٤٥هـ)، والشيخ شهاب الدين الباجُرْبَقي (ت: ٧٢٤هـ) ، في الشام.

– ٢ –

عليٌّ البُسْرِي الحَرِيريّ

ترجمته– منزعه الصوفي– الطائفة الحريرية

● **ترجمته**[1]:

(١) انظر– الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق د. بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط. الأولى، ١٤٢٤–٢٠٠٣، جـ١٤ ص٥٢٠–٥٢٨؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، نشر مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١، جـ٢ ص٨٨–٩٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط. الأولى، ١٤١٨–١٩٩٧، جـ١٧ ص٢٩٤–٢٩٥؛ المناوي: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية (الطبقات الكبرى)، تحقيق محمد أديب الجادر، بيروت، دار صادر، ١٩٩٩، جـ٢ ص٤٠١–٤٠٣، برقم: ٤٩٩، ثم ترجمه ص٥٦١، برقم: ٥٣٤؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه وعلق عليه محمود الأرناؤوط، دمشق– بيروت، دار ابن كثير، ط. الأولى، ١٤٠٦–١٩٨٦، جـ٧ ص٣٩٩–٤٠١

أبو الحَسَن، وأبو محمَّد، عليُّ بن أبي الحسن بن منصور، البُسْرِيُّ، الحَرِيريُّ، رأس طائفةٍ تنسب إليه يقال لها: "الحَرِيريَّة"، ولد في قرية: "بُسْر" من عمل "حوران"، وقدم "دمشق" صبيًّا فنشأ بها، وتوفي والده صغيرًا، فتعهده من بعده عمُّه، وكانت أمه دمشقية من ذرية الأمير قرواش بن المسيب العقيلي، وخاله صاحب دكان بسوق الصاغة، واشتغل هو بصنعة العتابي(١)، ويذكر الذهبي أنه برع فيها حتى فاق أقرانه.

ثم أقبل الحريري على التصوف، فصحب الشيخ أبا عليٍّ المغربل، خادم الشيخ أرسلان الدمشقي (ت: ٥٤١هـ)، وكان يغلبه الحال فيذهل عن نفسه، حتى حكي أنه كان يرقى حائطًا في داره لبعض حاجته فغلبه الحال فنسي نفسه وبقي منتصبًا على الجدار(٢)، ثم سلك الحريري مسلكًا أنكره عليه معاصروه، ونُسِبَ إلى التهاون بالشرع، وتعدي الحرمات، وحُكِيَت عنه أشياءُ بشعة في "الإباحة" وصُحْبة الأحداث والمرْدان.

ولمكان شهرته بما لا يحلُّ، اجتمع ابن الصلاح وابن عبد السلام وابن الحاجب على حلِّ دمه، فقال الملك الصالح: "أنا أعرفُ منه أكثر من ذلك"! وطلبه، فهرب الحريري إلى "بسر"، وقيل: إنه سُجِنَ مدَّة ثم أطلق(٣)، وذكر الذهبي أن ابن الصلاح كان يدعو عليه في الصلاة جهرًا(٤)، ويستفاد منه شهرة الرجل، وذيوع أمره في الناس.

---

(١) العتابي: صنف من قماش خشن مخطط بحمرة وصفرة، انظر- محمد أحمد دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، دار الفكر المعاصر- بيروت، دار الفكر- دمشق، ط. الأولى، ١٤١٠-١٩٩٠، ص٦٤ برقم: ٣٣٧؛ ص١١٢ برقم: ٦٠٦، وضُبِطت في الموضع الأول بكسر العين وتشديد التاء، على أنَّ لفظ ابن كثير في "تاريخه" والمناوي في "طبقاته": "صنعة الحرير"، وهو ما يناسب لقبه: "الحريري".

(٢) انظر- ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، إشراف كامل سلمان الجبوري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ٢٠١٠، جـ٨ ص١٤٩

(٣) يظهر أنَّ هذا السجن كان لدَيْنٍ عجز عن الوفاء به، قبل أن يشتهر أمره، كما سيأتي في الكلام على أصحابه "الحريريَّة".

(٤) انظر: تاريخ الإسلام، جـ١٤ ص٥٢٦

على أنَّ للحريري وجهًا آخر، يذكره الذهبي أيضًا، وهو ثناء الحافظ أبي شامة (ت: ٦٦٥هـ) عليه، بأنه كان من القائمين بحقوق الشرع ظاهرًا وباطنًا، قال:

"كان عند هذا الحريري من القيام بواجب الشريعة ما لم يعرفه أحد من المتشرعين ظاهرًا وباطنًا، ومن إقامة شرائع الحقيقة ما لم يكن عند أحد في عصره، من المحافظة على محبة الله وذكره، والدعاء إليه، والمعرفة به"(١).

وذكر أن أكثر الناس يغلطون في أمره، ومنهم أولئك الفقهاء الذين أفتوا بحل دمه، وشهد للحريري بأنه كان مكاشفًا بما في الصدور مطَّلعًا على سرائر الخلق. هكذا نقل الذهبي عنه في "تاريخ الإسلام"، وكذلك حكى ابن تغري بردي (ت: ٨٧٤هـ) والمناوي (ت: ١٠٣١هـ) ثناءه عليه(٢)، ولكن في "الذيل على الروضتين"، عند ذكر وفيات سنة ٦٤٥هـ، ما نصُّه:

"كان عند هذا الحريري من الاستهزاء بأمور الشريعة، والتهاون بها، من إظهار شعار أهل الفسوق والعصيان شيءٌ كثير، وانفسد بسببه جماعة كثيرة من أولاد كبراء دمشق، وصاروا على زي أصحابه، وتبعوه بسبب أنه كان خليع العذار، ويجمع مجلسُه الغناء الدائم، والرقص والمرْدان، وترك الاحتجار على أحدٍ فيما يفعله، وترك الصلوات،

---

(١) المصدر السابق، جـ١٤ ص٥٢٤-٥٢٥

(٢) انظر: النجوم الزاهرة، في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر، ١٣٨٣-١٩٦٣، جـ٦ ص٣٦٠، ويلاحَظ أن ابن تغري بردي سبق أن ذكر وفاة "علي الحريري" في سنة ٦٤٥، ثم عاد فذكره في السنة التالية، وقد حُرِّفت "أبو الحسن" في هذه النشرة، في كنيته وكنية أبيه، إلى "أبي الجنّ"؛ الكواكب الدرية، جـ٢ ص٤٦١، حيث يقول: "أثنى عليه أبو شامة الإمام في "ذيل تاريخه".

وكثرة النفقات، فأضلَّ خلقًا كثيرًا، وأفسَدَ جمًّا غفيرًا، وقد أفتى في قتله جماعة من علماء المسلمين، ثم أراح الله منه"(١).

ونقل قدح أبي شامة في الحريري، على ما أثبتناه، ابن فضل الله العمري (ت: ٧٤٩هـ)، والعماد ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ)، والنعيمي (ت: ٩٢٧هـ)(٢).

ويظهر أن كلا النصين يُحِيل على كتاب واحد، وأن إحدى النسختين أصابها التحريف الشديد حتى انقلب سياق الكلام فيها إلى ضده، ولكن نص كتاب أبي شامة، الذي لا تشير نشرته إلى اختلاف في الأصول الخطية، ربما كان أثبت وما فيه أرجح.

وقد جَمَع أخبار الحريريِّ تلميذُه النجم الإسرائيلي، وفيها أنه أخبر بوفاته قبل موعدها، وأنه قعد مستقبل القبلة، ضاحكًا، حتى توفي وهو على ذلك، يوم الجمعة، السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٤٥هـ، قال: "حَضَرْتُ وفاته، وغَسَّلْتُه، وألْحَدْتَه، ورثيته بهذه القصيدة(٣):

---

(١) أبو شامة: الذيل على الروضتين، تصحيح محمد زاهد الكوثري، عني بنشره عزت العطار الحسيني، بيروت، دار الجيل، ط. الثانية، ١٩٧٤، ص١٨٠، وقد علق السيد المحقق بشار عواد معروف على هذا الموضع من كلام الذهبي: "يلاحظ أن أبا شامة تكلم في "ذيل الروضتين" في الحريرية، ولم يتكلم في الحريري نفسه"، وليس كذلك.

(٢) انظر- ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، جـ٨ ص١٤٩، ويحكي فيه قولين، ويسوق كثيرًا من كراماته، ومنها ما يتعلق بدعائه له وهو صبي، وإن كان يقول في ترجمة ابن إسرائيل (جـ١٦ ص١١٧-١١٨): "له صحبة بالقدوة صاحب الطريقة علي الحريري، رحمه الله"؛ ابن كثير: البداية والنهاية، مصدر سابق، جـ١٧ ص٢٩٤-٢٩٥؛ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، أعدَّ فهارسه إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٤١٠-١٩٩٠، جـ٢ ص١٥٤-١٥٥

(٣) ذكر الذهبي مطلعها، وقال (تاريخ الإسلام، جـ١٤ ص٥٢٨): "هي نيِّف وسبعون بيتًا"، وأثبتها ابن شاكر الكتبي، انظر: فوات الوفيات، مرجع سابق، جـ٢ ص٩١-٩٤، وعند القطب اليونيني نونية طويلة

خَطْبٌ كما شاء الإلهُ جَلِيلُ   ذَهِلَتْ لديه بَصَائِرٌ وعُقُولُ

- **منزعه الصوفي:**

(وحدة الوجود- شهود الحكم القدري- كُرَّاس الحريرية- لغة الحريري)

أ- وحدة الوجود:

يظهر أن الحريري من رجال التصوف على طريق "وحدة الوجود"؛ فقد كان من تلامذته الشاعر نجم الدين بن إسرائيل، وروي عنه أنه قال: "قال لي الشيخ مرة: ما معنى قوله- تعالى-: ﴿**كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله**﴾ (المائدة: ٦٤)، فقلت: "سيدي يقول وأنا أسمع"، قال: "ويحك! من الموقِد ومن المطْفِئ"؟، لا تسمع لله كلامًا إلا منك فيك"!، قلت: "ومن أين لي"؟، قال: "بمَحْوِ إنِّيَّتك"!

يشير بهذا إلى أن محو الإنية، أي: الشعور بالوجود الذاتي أو الأنا، سينتهي إلى أن يكون الله هو الملقي والقابل، والموقد والمطفئ، والمتكلم والسامع، فبمحو هذه "الإنية" يستوي الضدان: "منك" و"فيك"، ويعودان مَظْهَرين لحقيقة واحدة.

ويشبه هذا ما روي عنه أنه سُئِل: "أيُّ الطرق أقربُ إلى الله حتى أسير فيه"؟، فقال: "اترك السَّيْرَ وقد وَصَلْت"[(1)]!، فهذا أيضًا لون من "المحْو"، ولكنه محوٌ للطريق الموهوم، الفاصل بين العبد والرب، حتى تكون حقيقة الوصول نفي الطريق الذي يُشْعِر بالإثنينية؛ فيتحد بذلك المبدأ والمنتهى، وهو معنى يُساق بعباراتٍ مختلفةٍ في التراث

في مدحه، انظر: ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، ط. الأولى، ١٣٧٤-١٩٥٤، جـ٣ ص٤٢٦-٤٣٢.

(١) انظر: تاريخ الإسلام، جـ١٤ ص٥٢٢-٥٢٣

الصوفي، ويُنْسَب إلى صوفيةٍ ذوي مشارب متباينة، وقد شبهه الذهبي بقول التلمساني(١):

فلسوف تعلم أن سيرك لم يكن إلا إليك إذا بلغت المنزلا

وقد كان عفيف الدين التلمساني (ت: ٦٩٠هـ)، صوفيُّ الوحدة وشاعرُها الكبير، يستحسن بعضَ كلامه(٢).

ب- شهود الحكم القدري:

يؤخذ من بعض ما ينقل عن الحريري، ولا سبيل إلى الاستيثاق منه، أنه غلب على حسِّه شهودُ الحُكْم القدري، لكنَّ المعزوَّ إليه في بَيَان هذا المعنى لفظٌ شديد الغرابة، وهو أنه قال: "لو ذبحت بيدي سبعين نبيًّا ما اعتقدت أني مخطئ"، وفسَّر ذلك الذهبيُّ بأنه إنما يصدر عنه ما أراده الله منه؛ إذ لا سبيل إلى الخروج عن حكم القدر، ثم ردَّ هذا الكلام وبيَّن فساده(٣).

ومن المحتمل أن تفهم هذه الكلمة على نحو ما فسرها الذهبي، ومن المحتمل أيضًا أن يكون سلب الإرادة الذي عناه الحريري أثرًا عن التوجهات الأسمائية الإلهية على موجودات العالم، فكل موجود هو تحت استيلاء اسم من الأسماء الإلهية يوجِّهه ويُصَرِّفه، على نحو ما هو مستقر في التصوف الوجودي لمحيي الدين بن عربي(٤)، ولا سبيل إلى الجزم بحقيقة ما قصد إليه الحريري لنقص الشواهد العلمية على مسلكه الصوفي تفصيلًا، وإن كان ينتسب في الجُمْلة إلى تصوف وحدة الوجود.

---

(١) المصدر السابق، الموضع نفسه

(٢) انظر- العفيف التلمساني: شرح مواقف النفري، تحقيق د. جمال المرزوقي، القاهرة، مركز المحروسة، ط. الأولى، ١٩٩٧، ص٢٠٦

(٣) انظر: تاريخ الإسلام، جـ١٤ ص٥٢٣

(٤) انظر: الفتوحات المكية، تحقيق عثمان يحيى، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ف٢ ص١٢٤-١٢٥

جـ- كُرَّاس الحَرِيرية:

وَرَد على ابن تيميَّة (ت: ٧٢٨هـ) سؤالٌ عن بعض عبارات صوفية الوحدة المتأخرين، وُجِدَت في "كُرَّاس" بخطِّ بعض "الثقات"، ويظهر أنَّ صاحب الكراس من الطائفة الحريرية، وأنه من جلساء ابن إسرائيل والحسن ابن الحريري، الذي آلت إليه مشيخة الجماعة بعد أبيه، ومما جاء فيه:

١- عن ابن إسرائيل، قال: "قال شيخنا عليٌّ الحريري: آدم صفي الله، تعالى، كان توحيده ظاهرًا وباطنًا"؛ قال: فكان قوله، تعالى: "لا تأكل" ظاهرًا، وكان أمره: "كُلْ" باطنًا، فأكل، وإبليس كان توحيده ظاهرًا، فأمر بالسجود لآدم، فرآه غيرًا؛ فلم يسجد؛ فغيَّر الله عليه، وقال: ﴿**اخرج منها**﴾ (الأعراف: ١٨) الآية".

وهذا نفسه ما مضى من شهود عموم المشيئة الإلهية لكل شيء، واستيلاء هذا الشهود على تصور الحريري، ولكنَّ التمثيل لهذا المعنى بقصة سجود إبليس يذكِّر بحديث الحلَّاج (ت: ٣٠٩هـ) عن "فتوَّة إبليس"[١]، وأحمد الغزالي (ت: ٥٢٠هـ) عن "همَّة العشق"[٢]، وكلاهما ممن نظر إلى معصية إبليس على أنها ترجع إلى موافقة حقيقة الأمر الإلهي وإن خالفته في الصورة.

---

(١) انظر- الحلَّاج: الطواسين، نشرة لوي ماسينيون، باريس، ١٩١٣، ص٥٠-٥٢

(٢) CF. Al-Ghazāli, Ahmed: Sawāniḥ, Eng. trans. by Nasrollah Pourjavady, ١٩٨٦, p. ٧٥، وانظر- ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط. الثانية، ١٤١٥-١٩٩٥، جـ١٧ ص٢٣٩؛ ابن حجر: لسان الميزان، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط. الأولى، ١٤٢٣-٢٠٠٢، جـ١ ص٦٤٩، حيث يروي كلام ابن أبي الحديد في نسبة هذا القول إلى أحمد الغزالي.

٢- "لو أنصف الناسُ ما رأوا عبدًا ولا معبودًا"!.

٣- وفي بعضها رؤيا قصها الحريري على ابن إسرائيل، قال: "يا نجم، رأيت لَهَاتي الفوقانية فوق السماوات، وحنكي تحت الأرضين، ونَطَقَ لساني بلفظةٍ لو سُمِعَت مني ما وَصَل إلى الأرض من دمي قطرة"(١).

في هذين النصين ما يشبه، لفظًا ومعنى، كلام محيي الدين بن عربي (ت: ٦٣٨هـ)، وهو معاصر للحريري ومواطن له في دمشق، فهذا القول الثاني يذكِّر بالبيت الشهير لابن عربي(٢):

الربُّ حقٌّ والعبدُ حق يا ليت شعري، من المكلَّف!

وهذه الرؤيا، كذلك، تذكِّر برؤيا ابن عربي في مدينة بجاية، وقد دخلها سنة ٥٩٧هـ، أنه رأى في نومه كأنه ينكح نجوم السماء بلذة عظيمة روحانية، ويستوعب في نفسه ما تفيضه من المعارف والأسرار الإلهية(٣)، وهذه رؤيا الحريري تمثله في صورة من يبتلع السماوات والأرضين، ويُحِيط بها بين اللهاة والحنك، أي: هو النسخة الجامعة لما تفرق في العالم من المظاهر الإلهية، أو هو "عالم صغير".

د- لغة الحريري:

على أن لغة الحريري في تصوير معانيه الصوفيه ربما تدل على شيء من ترك التحفظ أو الاحتراس؛ فقد اطَّلع الحافظ الذهبي (ت: ٧٤٨هـ) على "جُزْءٍ" فيه كلامٌ

(١) انظر في هذا النصوص- ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل، تحقيق محمد رشيد رضا، نشر لجنة إحياء التراث العربي، د. ت.، جـ١ ص٦٣-٦٥

(٢) انظر: الفتوحات المكية، مصدر سابق، ف١ ص٤٢

(٣) انظر- الغبريني: عنوان الدراية، فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط. الثانية، ١٩٧٩م، ص١٥٧.

للحريري، ذكر أن أصحابه يتداولونه بينهم، ومما فيه قوله: "إذا دخل مريدي بلد الروم، وتنصَّر، وأكل لحم الخنزير، وشرب الخمر، كان في شغلي"!

هذا "المريد"، إذًا، لم يخرج عن أمر شيخه حتى مع مقارفته كل هذه الحرمات في الشريعة، ولا يعرف سياق هذا الكلام عند الحريري على تقدير ثبوته عنه، فيحتمل أنه قصد به مخاطبة مريديه أنفسهم، وقد كانوا يتداولون هذا "الجزء" فيما بينهم، وأراد تعظيم طاعة أمره، وأنهم لا يسعهم إلا أن يجيبوه حتى لو أمرهم بمثل هذه المنكرات، ويحتمل أيضًا قصد تعظيم طريقته ومسلكه في التقرب إلى الله حتى ليأمن مريدوه سوء خاتمتهم وإن بدا منهم ما ظاهره الزيغ عن الطريق فإن مرجعهم إلى الهدى والرشاد، ويمكن كذلك أن يكون مراده أن ذلك المريد لم يخرج عن حكم القدر، وأنه، أيًّا ما فعل، خاضع لما تجري به الأقدار عليه، كما سبق عنه في عبارة لا تقل في شدة لفظها عن هذه العبارة.

ومن ترك التحفظ، كذلك، ما يروى أنه قال لأصحابه: "بايعُوني على أن نموت يهود، ونحشر إلى النار؛ حتى لا يصاحبني أحدٌ لعِلَّة"[(١)]!؛ فإن ظاهره أنه مجاوزة لفظية في التعبير عن التجرد لصحبته وخلوص النية للانتفاع به دون غرض غير الصحبة والتأسِّي.

● **الطائفة الحريرية:**

أما الطائفة الحَرِيريَّة فهو الاسم الذي عُرِفَ به أصحابُ الشيخ في حياته، وبَقِيَ مدة بعد موته، ويثبت المناوي نصًّا مهمًّا في نشوئها وأوَّليتها، قال:

"لزمه (= الحريري) دَيْنٌ؛ فحُبِسَ، فصلَّى بأهل السجن الصُّبْحَ، وذكروا حتى تعالى النهارُ، وبقي كل من يجيءُ إليه شيءٌ من أهله يرفعه حتى فرغوا من الذكر،

(١) انظر ما نقله الذهبي عن هذا "الجزء" الذي يتداوله الحريرية في: تاريخ الإسلام، جـ١٤ ص٥٢٢-٥٢٣

[فـ]جمع جميع ما حضر ومدَّ سماطًا، فأكلوا كلهم معًا، ولا زال يفعل ذلك كلَّ يوم، ثم أمرهم بقضاء دَيْنِه ففعلوا؛ فأطلق، فسعى في خلاص أولئك من السجن **فأطلقوا، فصاروا أتباعه**، واخترع لهم ذِكْرًا واظبوه، وأقام شِعارَ السَّماع؛ فاجتمع الناسُ عليه"(١).

من هذه الجماعة، إذًا، من أصحاب السِّجْن تألَّفَ الرعيلُ الأولُ من الطائفة، إن صحَّت هذه الرواية، وقد تابعوا شيخهم على ما رتَّبه لهم من الذكر ومجالس السماع، مع ما عُرِف به من غرابة هيئته ولباسه.

لعلَّ أخطر ما أحدثه الحريري، حتى ألَّب الفقهاء عليه، هو أن مسلكه الصوفي تميز في جموع الناس بشعار ظاهر، فكان الشيخ نفسه كما يروي الذهبي: "يلبس الطويل والقصير، والمدور والمفرج، والأبيض والأسود، والعمامة والمئزر، والقلنسوة وحدها، وثوب المرأة، والمطرز والملون"(٢)!

وطرح المبالاة، على هذا الوجه، من شأنه أن يُمِيل إليه أهواء العامة، وقد قيل: إن كثيرًا من أصحابه كانوا من "أبناء الدنيا" وأنه كان يتبعه كل "مريب"، وقد تابعه أصحابه هؤلاء على شذوذ هيئته، وفي بعض الروايات أن منهم من كان يبرأ منه إذا حُبِس، وتكتب المحاضر عليه بتلك البراءة.

ومع هذا التميز الظاهر في الملبس، تميَّزت الجماعة كذلك برفع شعار "السَّماع" و"الرقص"، حتى صار من أظهر شعائر الحريرية، في حياة شيخهم وبعد مماته، وقد ذكر الذهبي أنهم اتخذوا، من بعده، ليلة موته كالعيد لهم، قال: "وهي من ليالي القدر،

---

(١) الكواكب الدرية، مرجع سابق، جـ٢ ص٤٦١، وهي الترجمة الثانية له عند المناوي

(٢) تاريخ الإسلام، جـ١٤ ص٥٢٦

فيُحْيون تلك الليلة الشريفة بالدفوف والشبابات، والملاح والرقص إلى السَّحَر"! وقد قيل:

دفٌّ ومِزْمارٌ ونَغْمة شادِنٍ ... فمتى رأيت عبادة بمَلَاهِي

يا فرقة ما ضَرَّ دينَ محمَّدٍ ... وسَطَا عليه، ومَلَّه، إلَّا هِي!

وقيل:

حاز الحريريُّ فضلًا ... لِمَيِّتٍ ما تَهيَّا

في كل ليلة قدرٍ ... يَرَى له الناسُ "مَحْيا"

وقد بقيت الطائفة الحريرية بعد موت شيخها، وكان قد خلَّف أبناء نعرف منهم: محمدًا والحسن وشيث(١)، وقد أرادت أن يلي مشيختها محمد، وهو أسنُّ أبناء الحريري، ولكنه كان ينكر عليهم، ويدعوهم إلى لزوم الشرع، وشرط عليهم شروطًا لم يجيبوه إليها فاعتزلهم، حتى توفي سنة ٦٥١هـ، عن سبع وأربعين سنة(٢)، وهي شروطٌ يظهر أن فيها تبديلًا لبعض ما اعتادوه من الشعائر والرسوم، في الزي، والسلوك، وذلك "المِحْيا" الذي يعقدونه ليلة وفاة شيخهم وهي من ليالي القدر.

---

(١) "شيث" هذا ذكره ابن كثير في وفيات سنة ٦٩٦هـ، جـ١٧ ص٦٩٩-٧٠٠، ويظهر أنه أصغر أبنائه، ويجدر التنبيه على أن عبارة ابن كثير، في هذا الموضع، صريحة في التمييز بين "الحسن" و"الحسن الأكبر" وأنهما اثنان من أولاد الحريري، إذ يذكر توجه أخيه الحسن والفقراء (= الصوفية) من دمشق إلى "بسر" لتعزية أخيهم الحسن الأكبر.

(٢) انظر: الوافي بالوفيات، باعتناء أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط. الأولى، ١٤٢٠-٢٠٠٠، جـ٤ ص١٣١، برقم: ١٧٢٣

انحازت الجماعة من بعده إلى ولده "حسن"، وكان له عند موت أبيه نحو أربع وعشرين سنة، وتوفي الحسن في ربيع الآخر من سنة ٦٩٧هـ، في قرية "بُسْر"، قال ابن كثير: "كان أكبرَ الطائفة، وللناس إليه ميل لحسن أخلاقه، وجودة معاشرته"[١].

ولعلَّ مصير الطائفة إلى ابنه الحسن هو السبب في شيوع كنية الحريري بأبي الحسن، مع أن محمدًا هو أكبر أبنائه.

ومهما يكن، فلا يُعْرَف ما آلت إليه الجماعة بعد وفاة الحسن قرب نهاية القرن السابع، وإن كنا نعلم أنها اتخذت في "بسر" زاوية عُرِفت باسمها: "الزاوية الحريريَّة"، ذكر النعيمي (ت: ٩٢٧هـ) أنها في ظاهر دمشق بالشرف القبلي[٢].

- ٣ -

نجم الدين بن إسرائيل

ترجمته- شعره- منزعه الصوفي

- **ترجمته**[٣]:

نجم الدين، أبو المعالي، محمد بن سوار بن إسرائيل الشيباني، من مشهوري شعراء المائة السابعة، ولد في دمشق سنة ٦٠٣هـ، وصَحِب الشيخ الكبير شهاب الدين السهروردي (ت: ٦٣٢هـ)، قال ابن حجر: "سمع الحديث على الشيخ شهاب الدين

(١) البداية والنهاية، مصدر سابق، جـ١٧ ص٧٠٥

(٢) انظر- النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، مصدر سابق، جـ٢ ص١٥٤

(٣) انظر- اليونيني: ذيل مرآة الزمان ، جـ٣ ص٤٠٥-٤٣٢؛ ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، جـ٢ ص٤٣١-٤٣٨؛ الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ٣ ص١٢٠-١٢١، برقم: ١٠٩٥؛ الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ١٥ ص٣٤٧-٣٥٢، برقم: ٣٨٧؛ ابن حجر: لسان الميزان، جـ٧ ص١٩٠-١٩٣؛ ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، جـ١٦ ص١١١٧-١٢٠؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٧ ص٥٤٩-٥٥٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب، جـ٧ ص٦٢٦

السهروردي، وسمع عليه كتاب: "عوارف المعارف"، ولبس منه الخرقة"[1]، واتصل بالشيخ عليٍّ الحريري (ت: ٦٤٥هـ) في مطلع شبابه في نحو الثامنة عشرة، ومنه اتصل بمعارف التصوف الوجودي، فظهرت في معاني شعره.

وكان يغلو في عليٍّ الحريري، ويبالغ في الثناء عليه، وينشئ القصائد في رثائه، ولكن قد يؤخذ مما حكاه القطب اليونيني أنه رجع عن هذا التعظيم له؛ فإنه قال في آخر ترجمة ابن إسرائيل:

"كان، مع هذه المبالغة، يقول عنه إذا ذكره: "صاحبنا"!، كأنه يترفَّع أن يقول: "شيخنا"، فإذا قيل له في ذلك يقول: "شيخي شهاب الدين السهروردي، وإنما الشيخ (= الحريري) صحبته مدة زمانية إلى حين وفاته"! هذا سُمِع منه وما هو في معناه غير مرة في آخر عمره"[2].

فإن صحَّ هذا فربما طرأ عليه في دور متأخر من حياته، أو "في آخر عمره" كما هو لفظ اليونيني.

تجرَّد ابن إسرائيل، وطاف في البلاد على وجه السياحة الصوفيَّة، ثم رجع إلى دمشق، وفيها توفي سنة ٦٧٧هـ، ودفن داخل قبة الشيخ الكبير أرسلان الدمشقي بجوار شيخه الحريري وولده محمد، وسار في جنازته جماعة من الأعيان، منهم القاضي ابن خلِّكان (ت: ٦٨١هـ) وجموع من الفقراء والصوفية.

- **شعره:**

لم يكن شعر ابن إسرائيل خاصًّا بالتصوف وحده، بل امتدح الرؤساء والكبراء، وأصاب منهم مالًا وفيرًا، ونظم في الغزل والوصف، وأخذ في شيء من مداعبات

(١) لسان الميزان، جـ٧ ص١٩٠

(٢) ذيل مرآة الزمان، جـ٣ ص٤٣٢

الشعراء ونوادرهم، ويظهر أن ذلك قلَّ بعد اجتهاده في الرياضة الصوفية، ولزومه آداب الطريق وصحبة شيوخه.

ومع قدرة ابن إسرائيل على النظم يحكون أنه سطا على قصيدة لمعاصره ابن الخِيَمي، قيل: إنه نظم قصيدة له فضاعت منه مسوَّدتها، فعثر عليها ابن إسرائيل، فبيَّضها وانتحلها لنفسه، وهي البائية التي مطلعها:

يـا مطلبًـا لـيس لي في غـيره أربُ إليك آلَ التقصِّي، وانتهى الطلبُ

واشتهر منها هذا البيت، وبعضهم يجعله موضع النزاع بينهما:

يا بارقًا بأعالي الرقمتين بدا لقد حكيت ولكن فاتك الشنبُ!

فيُرْوَى أن الشاعرين تراضيا على أن يحتكما إلى ابن الفارض، فقال: "لينظم كل منكما أبياتًا على الوزن والقافية لنعرضها على هذه القصيدة"، فنظما، فحكم لابن الخِيَمي، وقال لابن إسرائيل: "لقد حكيت ولكن فاتك الشنب"!، فيقال: إن بعض الحضور أعجبه نظم ابن إسرائيل حتى تعجَّب أن ينتحل مثلُه ما ليس له، وأنَّ ابن الخيمي قال: "هذه سَرِقة عادة، لا سَرِقة حاجة"(١).

● منزعه الصوفي:

(سلوكه ولبس الخرقة– انتماؤه إلى الحريرية– التصوف في شعره– وحدة الوجود– المجالي الثلاث في "عرف العرفان"– صلته بالقلندرية)

---

(١) انظر قصة تنازعهما على القصيدة البائية في: لسان الميزان، جـ٧ ص١٩٢؛ البداية والنهاية، جـ١٧ ص٦٠٥؛ النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٤٢٤–٢٠٠٤، جـ٣١ ص٩٠–٩٦، وقد أثبت نصَّ القصيدة البائية وما نظماه على بحرها ورويِّها عند التحاكم إلى ابن الفارض.

أ- سلوكه ولبس الخرقة:

أقبل ابن إسرائيل على سلوك الطريق الصوفي في سن غير عالية؛ فإنه ابتدأ الرياضة على الشيخ شهاب الدين السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢هـ، ولابن إسرائيل حينئذٍ نحو تسع وعشرين سنة، ويظهر أنه كان له به زيادة رعاية حتى "أجلسه في ثلاث خلوات، وآنسه في الجلوات"(١).

ثم ألبسه السهروردي خرقة الإرادة، ولا بد أنه ألبسه إياها على مذهبه فيها، وكان السهروردي يلتمس للخرقة أصلًا في الشرع، ولكنه لا يقول بإسنادها إلى النبي، وإنما يراها من "استحسان الشيوخ"(٢)، ويجعلها أمارة ظاهرة على تحكيم المريد للشيخ في نفسه، ودخلوله في صحبته.

وتذكر المصادر أنه أخذ عن الشيخ كتابه الشهير: "عوارف المعارف"، وهو كتاب في الآداب الصوفية لا في العرفان على طريقة المتأخرين، وهذا العرفان هو الذي سيغلب على تصوف ابن إسرائيل كما يؤخذ من شعره؛ وإذًا فليس مصدره فيه السهروردي أو "عوارفه"، وأقربُ مصدرٍ إليه الشيخ أبو الحسن الحريري وطريقته، ثم من كانوا حوله من صوفية الوحدة ومنهم ابن الفارض، على المرجَّح في تفسير التائية الكبرى، ومنهم أيضًا ابن عربي وصدر الدين القونوي وعفيف الدين التلمساني، وإن لم يقم شاهدٌ تاريخيٌّ على علاقة ابن إسرائيل بهم، أو أخذه عنهم.

نشأ ابن إسرائيل في التصوف على السهروردي، ولكن شعره إنما يصور تصوف الحريري؛ فما يذكره القطب اليونيني أنه كان يصف السهروردي بأنه "شيخنا" ويقول

---

(١) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار، جـ١٦ ص١١٨، وانظر: ذيل مرآة الزمان، جـ٣ ص٤٠٥

(٢) انظر: عوارف المعارف، تحقيق عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف، القاهرة، مكتبة الإيمان، ط. الأولى، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٦٥

عن الحريري: "صاحبنا" لا يسلِّم لابن إسرائيل إن صحت روايته عنه، فإن منزعه الصوفي هو إلى الحريري أقرب منه إلى السهروردي وإلى السلوك الصوفي كما يصوره "عوارف المعارف".

ب- انتماؤه إلى الحريرية:

مضى أنَّ ابن إسرائيل كان من وجوه أصحاب الحريري، صحبه قديمًا "واقتدى به منذ بلوغه الحلم"(١)، ولازمه حتى قال: "صحبته حضرًا وسفرًا"(٢)، وقد أنشأ شعرًا كثيرًا في مدح في حياته ثم رثائه بعد موته، ويؤخذ من الروايات أنه كان عنده حينما حضرته الوفاة، ثم جمع أخبار الشيخ وأتى على نعت مسلكه وتفصيل شمائله، وكذلك كان من جلساء ولده الحسن، الذي حلَّ في مشيخة الجماعة محل أبيه.

بل تذكر المصادر أن ابن إسرائيل تزوج امرأة من الحريريَّة يقال لها: "فاطمة بنت إبراهيم الزعبي"، قال الذهبي: "كانت مليحة تتعانى الرجولية، وتحلق رءوس الفقراء، وتشتلق، ولها أخبار"(٣)، وهذا قد يؤخذ منه مبلغ مخالطة ابن إسرائيل وزوجه لجموع

---

(١) لسان الميزان، جـ٧ ص١٩٠، وأرَّخ القطب اليونيني مبدأ صحبة ابن إسرائيل للحريري بسنة ٦١٨هـ، انظر: ذيل مرآة الزمان، جـ٣ ص٤٠٥

(٢) تاريخ الإسلام، جـ١٤ ص٥٢٨

(٣) تاريخ الإسلام، مصدر سابق، جـ١٥ ص٦١٤، برقم: ٥١٩، وانظر: البداية والنهاية، مصدر سابق، جـ١٧ ص٦١٨، وفيه: "الرعيني" مكان الزعبي، وذكر أنها كانت من بيت الفقر، وأنَّ لها كلامًا في الطريقة؛ العيني: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المماليك جـ٢، تحقيق د. محمد محمد أمين، القاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٣١-٢٠١٠، ص٣٩١، وفيه: "الزعيبي"، وزاد أنها دفنت في "خوزستان". هذا، وأقربُ ما تفسَّر به كلمة "تشتلق"، في كلام الذهبي، أنها تحمل "الشَّلَّاق"، وهو شبه المخلاة يستعمله الفقراء وأهل السؤال، انظر: تاج العروس الكويت، ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، جـ٢٥، تحقيق مصطفى حجازي، ص٥٢٦، ونقل استعمالًا لها عند الحريري صاحب المقامات، وذكر أنها مولَّدة.

الحريرية حتى كانت تخدمهم بنفسها وتقوم على شئونهم، وتتكلم في طريقتهم، وقد حضر جنازتها حين وفاتها في ربيع الأول من سنة ٦٨٨هـ، بعد وفاة زوجها ابن إسرائيل، خلق كثير.

فلم يكن ابن إسرائيل، إذًا، على اتصال محدود بالحريري وطريقته، بل هو على الحقيقة من وجوه أصحابه، ومن أعيان المنتسبين إليه، ولعلَّه أشهر من حُفِظ اسمه من أصحاب الحريري؛ ومن أجل مكانته الفكرية والأدبية في الحريرية كان الوحيد الذي صُرِّح باسمه في "الكُرَّاس" الذي عُرِض على ابن تيمية وفيه طائفة من أقوال الشيخ وبعض المنتمين إليه.

جـ- التصوف في شعره:

أما شعر ابن إسرائيل في التصوف فكان يشبَّه في معانيه بشعر ابن الفارض، قال الصفدي: "سألت عنه الشيخ أبا الثناء محمودًا وطبقتِهِ في النظم، فقال: "كان شعره في الأول جيدًا، فلما سلك طريق ابن الفارض، وقال في المظاهر، انتحس نظمه"!، ولعَمْري هو كما قال"(١)!

ومُراده بالقول في "المظَاهر" الكلام على التجليات الإلهية؛ فلذلك ربما لم يكن هذا تشبيهًا فنيًّا، وإنما كان يشبه ابن الفارض من جهة التعبير عن معاني التصوف المتأخر، وكثرة الإشارات إليها في نظمه.

على أن تفصيل هذه "المظاهر" في شعره يستدعي تقديم موقفه من وحدة الوجود، وهي الإطار الفكري للكلام على الحضرات والتعينات الإلهية.

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، جـ٣ ص١٢٠

د- وحدة الوجود:

أنشأ ابن إسرائيل في بعض نظمه(١):

يـا مَـن يُشِـيرُ إلـيهِمُ المتَكَلِّمُ وإلَـيْهِمُ يَتوجَّـهُ المتَظَلِّمُ
وعليهِمُ يَحْلـو التأسُّـفُ والأسـى ويَلَـذُّ لَوْعـاتِ الغَـرَامِ المغْـرَمُ
هذا الوجودُ وإن تعدَّدَ ظاهرًا وحَيَاتِكُمْ ما فيه إلا أنتمُ!

إلى أن قال:

أنتم حقيقة كلِّ موجودٍ بدا ووجُودُ هذي الكائنات توهُّمُ!

الوجودُ، كما يؤخذ من هذا الشعر، هو في حقيقته وجود واحد، والتعدد هو معنى قائم في ظاهر الأمر أو في رأي العين أو في "الوهم" فحسب، وهو ما سبق أن استعار له ابن عربي ما يظهر على الستار في لعبة خيال الظل(٢)، وما سيستعير له عبد الكريم الجيلي (نحو: ٨٢٦هـ) صورة الثلج والماء(٣)، وعبد الغني النابلسي (ت: ١١٤٣هـ) صورة البحر والموج(٤)، ومرجعها جميعًا إلى وحدة الجوهر وكثرة المظَاهر والمجَالي أو الصور والتعيُّنات.

من أجل ذلك يجري ابن إسرائيل على ما سبقه إليه كثيرون من صوفية الوحدة، من أن هذا سر لو أذاع به لأفتى أهل الشرع بحل دمه(٥):

---

(١) ابن شاكر الكتبي: فوات الوفيات، جـ٢ ص٤٣٤

(٢) انظر: الفتوحات المكية، طبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر، المقابَلة على طبعة الأمير عبد القادر الجزائريّ، سنة ١٣٢٩هـ، جـ٣ ص٦٨

(٣) انظر: النادرات العينية، تحقيق د. يوسف زيدان، القاهرة، دار الأمين، ط. الأولى، ١٤١٩-١٩٩٩، ص٩٤

(٤) انظر: ديوان الحقائق ومجموع الرقائق، مصر، المطبعة الشرفية، ١٣٠٦هـ، ص١٥، البيت: ٢

(٥) لسان الميزان، جـ٧ ص١٩١

في القلب سِرٌّ لِلَيْلَى لو نَطَقْتُ به جَهْرًا، لأفتَوْا بكُفْرِي بعد إيماني!

وفي نصِّ "الكرَّاس" الذي سُئِل عنه ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)، وتقدَّم أن صاحبه من "الحَرِيريَّة"، وجُلَساءِ نجم الدين بن إسرائيل:

"قال الشيخ نجم الدين بن إسرائيل: "إن الله ظهر في الأشياء حقيقة، واحتجب بها مجازًا؛ فمن كان من أهل الحق والجمع شهدها مَظَاهِرَ ومَجَالِيَ، ومن كان من أهل المجاز والفرق شهدها سُتورًا وحُجُبًا".

وذكر أنه قال في بعض شعره:

لقد حقَّ لي رفضُ الوجود وأهلِهِ وقد علقت كفاي جمعًا بمُوجدي

ثم بعد مدَّة غير الشطر الأول من "رَفْض" إلى "عِشْق":

*** لقد حقَّ لي عشقُ الوجود وأهله***

فلما سُئل عن ذلك قال: "مقام البداية أن يرى الأكوان حُجُبًا؛ فيرفضها، ثم يراها مظاهر ومَجَالي؛ فيحق له العشق لها"(١).

وفي سيرة ابن إسرائيل، كذلك، أنه حَضَر سماعًا في بعض الليالي، فأنشد المغني من شعره:

وما أنت غير الكون، بل أنت عينُهُ! ويفهَمُ هذا السرَّ من هو ذائقُ

وفي المجلس الفقيه نجم الدين بن الحكم الحموي، فقال: "كفرتَ، كفرتَ"!، فقال ابن إسرائيل: "لا، ما كفر!، ولكن أنت ما تفهم"!؛ فاختلط المجلسُ(٢)، وفي بعض الروايات أنه فرَّ بعدها حذرًا من عاقبة هذه المشاحنة.

(١) انظر: مجموعة الرسائل والمسائل، جـ١ ص٦١، وانظر أيضًا: ص٦٣-٦٤

(٢) انظر: لسان الميزان، جـ٧ ص١٩٠-١٩١؛ فوات الوفيات، جـ٢ ص٤٣١

هـ- المجالي الثلاث في "عَرْف العِرْفان":

هذا الوجود الواحد له مَجالٍ وحضرات تنتظم عموم مراتب الموجودات، ولكنَّ ابن إسرائيل في كثيرٍ من شعره يُجْمِل هذا العُمُوم في ثلاث حضرات، ومن أهم قصائده في هذا القصيدة التي سماها: "عرف العرفان"، وهي في نحو مائة بيت، أثبت القطب اليونيني والذهبي وابن حجر كثيرًا منها في تراجمهم لابن إسرائيل:

١- أولى هذه الحضرات الثلاث "الجمال"، وهي حضرة تظهر فيها معاني اللطف والرقة والحب:

أراه بأوصاف الجمال جَمِيعِها ... بغير اعتقادٍ للحُلُولِ المفَنَّدِ
ففي كل هيفاءِ المعَاطِفِ غادةٍ ... وفي كل مصقول السَّوالفِ أَغْيَدِ
وعند اعتناقي كلَّ قَدٍّ مُهَفْهَفٍ ... ورَشْفِي رُضَابًا كالرَّحِيق المبَرَّدِ
وفي الدُّرِّ والياقوتِ والمِسْكِ والحِلَى ... على كل ساجي الطَّرْفِ لَدْنِ المقَلَّدِ
وفي الراح والرَّيْحان والسَّمْع والغِنَا ... وفي سَجْع ترجيع الحَمَام المغَرِّدِ

قال ابن حَجَر: "استمر يقول: "وفي، وفي"، إلى أن كاد يستوعب"[(١)]!، وإن كان ينبِّه هو على أن هذه المجالي الجَمَالية لا تحمل على "الحلول" الذي يصفه بأنه قول "مفنَّد".

٢- والثانية الجَلال، وهي حضرة تظهر فيها معاني الصولة والسطوة والشدة:

كذلك أوصافُ الجَلَال مَظَاهِرٌ ... أشاهده فيها بغير تردُّدِ
ففي صَوْلة القاضي الجليلِ وَقَارُهُ ... وفي سَطْوة السلطان عند التمرُّد
وفي شدة الليث الهَصُور برأسه ... وفي شد عيس بالسَّقام مُبَلَّد

(١) لسان الميزان، جـ٧ ص١٩١

٣- والثالثة الكمال، وهي حضرة تجمع السابقتين معًا، ويلتئم فيها وجها الصفات الإلهية المتقابلة، وهذا هو الكمال الذي ينفي عن الوجود كل نقص أو قصور أو إساءة، بل تستوي فيها الأضداد وتجتمع المتنافرات:

ويبدو بأوصاف الكمال فلا أرى   برؤيته شيئًا قبيحًا ولا ردي
فكلُّ مُسِيءٍ بي إليَّ كمُحْسِنٍ   وكلُّ مُضِلٍّ لي لديَّ كمُرْشِدِ
ولا فرق عندي بين أنسٍ ووحشةٍ   ونور وإظلام، ومُدْنٍ ومُبْعِدِ!

فهذه هي الحضرات الثلاث التي استولت على تصور ابن إسرائيل فردَّدها في كثير من شعره؛ وقد انتهى به شهوده الحقيقة الإلهية في جملة هذه الحضرات إلى قول شبيه بأبيات ابن عربي المشهورة في "دين الحب" الذي يسع المختلفين في عقائدهم[(١)]، فقال ابن إسرائيل:

وقلبي مع الأشياء أجمع قلَّب   وسري مقسوم على كل مورد
تعمرت الأوطان بي، وتحققت   مظاهرها عندي بعيني ومشهدي
فهيكل أوثان، ودير لراهب   وبيت لنيران، وقبلة مسجد!

وهذا قد يكون أثرًا من ابن عربي، كما قد يكون أثرًا عن ابن الفارض؛ فإنه نحا هذا النحو في مقاطع من القصيدة التائية الكبرى، والروايات تذكر أنه كان على صلة بابن الفارض خاصة، كما مضى عند احتكامه هو وابن الخيمي إليه للفصل بينهما في نسبة القصيدة البائية، ومهما يكن، فهذا المعنى هو على الحقيقة نتيجة لهذا النمط من الفكر الصوفي، ويظهر في تراث عامة شعراء الصوفية المنتمين إليه.

---

(١) انظر- ابن عربي: ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، ناظر طبعه محمد سليم الأنسي، بيروت، المطبعة الأنسية، ١٣١٢هـ، ص٣٩-٤٠

و- صلته بالقلندرية:

القلندرية منزع صوفي متأخر تطور عن الملامة والملامية أو الملامتية، فكان أصحابه يغالون في ستر باطنهم حفظًا لقلوبهم عن الرياء وحظ الخلق، ثم أسرفوا حتى انتهوا إلى التظاهر بالمخالفات وفعل بعض المقبَّحات في الشريعة، ومنها مخالفة الهيئة الظاهرة بحلق اللحى(١).

وكان أول ظهور الطائفة بالشام في النصف الأول من القرن السابع للهجرة، على يد الشيخ جمال الدين محمد الساوجي، وهو أول من تظاهر بحلق اللحية والتميز في الناس بلباس مستغرب، فمنهم من تابعه ومنهم من أنكر عليه، وقد خلفه على الطائفة جلال الدين الدركزيني ثم محمد البلخي(٢).

ونعثر على شاهد عند الذهبي في تاريخه عن علاقة ابن إسرائيل بالطائفة القلندرية، وهو قوله: "ذكر ابن إسرائيل الشاعر أن هذه الطائفة ظهرت بدمشق سنة نيف عشرة وستمائة، ثم أخذ يحسِّن حالهم الملعون، وطريقتهم الخارجة عن الدين"(٣)، ويؤخذ من هذا أن ابن إسرائيل لم يكن من القلندرية، وأنه إنما كان يُحْسِن الظنَّ بهم، ويقبل ما اشتهروا به من الأحوال والشعائر الظاهرة التي جلبت عليهم سوء السمعة.

(١) انظر عن القلندرية والفرق بينهم وبين الملامتية- شهاب الدين السهروردي: عوارف المعارف، ص١٤٩-١٥٠؛ الملا الجامي: نفحات الأنس من حضرات القدس، ط. الأزهر، تصوير الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٠، ص٢٥-٢٦، حيث يذكر صنفي القلندرية: المتشبهة بالملامتية، والأخرى التي وصفها بالخروج من دائرة الإسلام؛ المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق د. أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان، لندن، ٢٠٠٢، جـ٤ ص٨١٢-٨١٣، عند كلامه على "زاوية القلندريَّة".

(٢) انظر- الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ١٣ ص٩٤٨-٩٤٩، برقم: ٦٣٦

(٣) تاريخ الإسلام، جـ١٣ ص٩٤٩

ومن المحتمل أن هذا كان موقف عموم الحريرية من القلندرية، لا ابن إسرائيل على الخصوص، فقد ذكر الذهبي أن الإنكار كان يقع على الحريرية والقلندرية، ويلاحظ أن بعض ما كان يلبسه الساوجي وأصحابه من الثياب هو نفسه ما كان يستعمله الحريري، وهما متفقان زمنًا ومكانًا: الشام في النصف الأول من القرن السابع.

على أن القلندرية ظهرت في تاريخ التصوف المتأخر منزعًا غاليًا في الزهد، تميز بشعار ظاهر مخالف للشرع، ولا يعرف على الحقيقة طبيعة تصوفهم من الناحية الفكرية الخالصة، ولعلّ هذا الجانب الفكري هو ما تزيد به طائفة الحريري على طائفة المحَلِّقين (= القلندرية)، فقد كان للحريري أصول فكرية تدل عليها مأثوراته والأقوال المحفوظة عنه وعن كبار أصحابه كالنجم الإسرائيلي.

- ٤ -

الباجُرْبَقي وأصحابه

ترجمته- منزعه الصوفي- أصحابه

● **ترجمته**[١]:

محمد بن عبد الرحيم بن عمر الجزري، شهاب الدين الباجُرْبَقي[٢]، ولد سنة ٦٦٤هـ لأب من شيوخ الشافعية ومفتيهم، فخرج بولده إلى دمشق، وأسمعه من أدركه من المحدثين، ومنهم فخر الدين بن البخاري، واشتغل "محمد" بالعلم كأبيه، فلمَّا توفي والده أقبل على الزهد والنسك، وصُحْبة الفقراء (= الصوفية)؛ فحصل له قبولٌ عند جماعات من العامة والخاصة.

ومن هؤلاء الذين قبلوه وأحسنوا الظنَّ به صدرُ الدين بن الوكيل، الفقيه الأصولي الشافعي، قال ابن حَجَر[٣]: "انصاع له صدر الدين بن الوكيل مع سعة علمه؛ فكان يظهر اعتقاده، ويلازمه، ويقف قدَّامه ويُطِيلُ النظر إليه، وينشد:

عَجَبٌ من عَجَائب البَرِّ والبَحْر، ونوعٌ فردٌ، وشكلٌ غريبُ!

---

(١) انظر في ترجمته- أعيان العصر، وأعوان النصر، تحقيق الدكاترة علي أبو زيد، ونبيل أبو عمشة، ومحمد موعد، ومحمود أبو سالم، قدَّم له مازن المبارك، بيروت، دار الفكر المعاصر، ودمشق، دار الفكر، ط. الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م، جـ٤ ص٥٠٥-٥٠٩؛ الوافي بالوفيات، جـ٣ ص٢٠٤-٢٠٥؛ فوات الوفيات، جـ٢ ص٤٤٤-٤٤٥؛ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط. مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، ١٣٤٩هـ، جـ٤ ص١٢-١٤، وفيه: "جمال الدين"؛ البداية والنهاية، جـ١٨ ص٢٤٧-٢٤٨

(٢) هذه النسبة إلى "باجربق"، قرية فيما بين النهرين، ضبطها ياقوت الحموي بضم الجيم، انظر: معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، جـ١ ص٣١٣، وضبطها مرتضى الزبيدي في شرح القاموس بالفتح، انظر: تاج العروس، جـ٢٥ ص٣٢

(٣) الدرر الكامنة، مصدر سابق، جـ٤ ص١٢، ونحوه في: الوافي بالوفيات، جـ٣ ص٢٠٤

ظهرت على الباجربقي غرائب، عدَّها أولياؤه من نوع الكرامة، وعدَّها خصومه حالًا شيطانية، واتهم برقة الدين أو الخروج منه جُمْلة، وأضيفت إليه عبارات شاذة كالتي حكيت من قبل عن ابن عربي وابن سبعين والعفيف التلمساني، من نحو: "إنَّ الرُّسُل طولت على الأمم الطرق إلى الله"، وأنه يذكر النبي ﷺ باسمه مجرَّدًا، ويستهين بأمر الصلاة؛ فتنازع الناسُ في أمره، واختلفوا في الحكم له أو عليه، قال الصفدي[(١)]:

"كان أمره عجيبًا، وحاله تجعل الولدان شيبًا!، خلب عقولَ الكبار من الفضلاء، وسحر بحاله السادة النبهاء النبلاء"، إلى أن قال: "فما أدري ما أقول!، إلا أنَّ جماعة كفروه، وأخرجوه عن حمى الإسلام ونفروه، والله يعلم السرائر، وما تنطوي عليه الضمائر"!

وانتهى الأمر بأن أفتى القاضي جمال الدين الزواوي المالكي بحلِّ دمه بمحضر من العلماء، سنة ٧٠٤هـ؛ فهرب الباجربقي إلى القاهرة، وانقطع بالجامع الأزهر[(٢)]، وما عاد إلى دمشق إلا بعد سنين، بعد أن حكم القاضي الحنبلي بحقن دمه بحُجَّة ثبوت عداوة بينه وبين الشهود عليه، وقد ثار نزاع بين القاضيين المالكي والحنبلي في شأنه، وشأن المقالات التي أضيفت إليه[(٣)]، انتهى برجوع الباجربقي واعتزاله في "القابون"، حتى وفاته سنة ٧٢٤هـ.

---

(١) أعيان العصر وأعوان النصر، مصدر سابق، جـ٤ ص٥٠٦

(٢) ظنَّ ابن فهد أن الباجربقي قتل بعد حكم المالكي، وسائر المصادر على أنه فر إلى القاهرة أو إلى العراق، انظر: لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، مطبعة التوفيق بدمشق، ١٣٤٧هـ، ص٩٥-٩٦

(٣) انظر في هذا الخلاف بينهما- الدرر الكامنة، جـ٤ ص١٣-١٤؛ العيني: عقد الجمان، عصر سلاطين المماليك، جـ٤، تحقيق محمد محمد أمين، ص٣٥٦؛ أعيان العصر، جـ٤ ص٥٠٧-٥٠٨، وقد ذكر هذا الخلاف بعض الفقهاء في مصنفاتهم الفقهية كما صنع ابن مفلح المقدسي (ت: ٧٦٣هـ) في "الفروع"،

● منزعه الصوفي:

(رتبة النبوة- دعواه الاجتماع بابن عربي- الملحمة الباجربقية- علاقته بالقلندرية)

أ- رتبة النبوة:

يؤخذ من روايةٍ عنه أنه كان يعتقد حصول رتبة الأنبياء للسالكين، حتى هذا الأمر، على شذوذه، حكي عن الباجربقي على وجه صريح في الاستخفاف بمقام النبوة، إن صحت الرواية، وهي أن مجد الدين التونسي النحوي حضر إليه يطلب أن يُسَلِّكه، فسَلَّكَه على عادته، وضرب له موعدًا يرجع إليه فيه، فلما عاد سأله: "ما رأيت"؟، قال: "وصلت في سلوكي إلى السماء الرابعة"، قال: "هذا مقام موسى بن عمران، بلغته في ثلاثة أيام"!، فندم التونسي، وطلب القاضي جمال الدين المالكي فقصَّ عليه ما جرى؛ فبعثه هذا على أن يفتي بحل دمه[(١)].

ب- دعواه الاجتماع بابن عربي:

يُرْوَى عن الباجُرْبَقي أنه كان ينسُب نفسه إلى تصوف محيي الدين بن عربي، ويدَّعي أنه يجتمع به في اليقظة، على ما يؤخذ من قول السُّبْكي: "اجتمعت به بمصر، فذكر لي أن محيي الدين بن العربي قال له إنه غضبان على أصحابه، قال: فقلت له: "لعلَّ هذا في النوم"، فلم يعجبه كلامي"[(٢)]!

وهي رواية تدل بوضوح على انتساب الباجربقي إلى نمط تصوف ابن عربي إجمالًا، وأقل ما يستخلص منها متابعته على القول بوحدة الوجود، وهي الوعاء العام لتفصيلات التصور الصوفي لابن عربي ومن تابعه من صوفية الوحدة المتأخرين.

تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة ودار المؤيد، ط. الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، جـ٦ ص٤٥٧

(١) الوافي بالوفيات، جـ٣ ص٢٠٤

(٢) انظر- ابن حجر: الدرر الكامنة، جـ٤ ص١٤

جـ- المَلْحَمة الباجُرْبَقية:

يسوق ابن خلدون في مقدمة تاريخه صورة خاصة لابن الباجربقي، إذ يذكر له "ملحمة" في "حدثان دولة الترك"، يعني قصيدة من نوع الجفر الشائع في مجامع الغلاة، نعتها بأنها "كلها إلغازٌ بالحُرُوف"(١)، أولها:

إن شئت تكشف سرَّ الجفر يا سائلي من علم جفر وصي والد الحسن
فافهم وكن واعيًا حرفًا وجملته والوصف، فافهم كفعل الحاذق الفطن
أما الذي قبل عصري لست أذكره لكنني أذكر الآتي من الزمن

ثم أثبت مقاطع من هذه النونية في الجفر، تدل في مجموعها على أن الباجربقي قد جرى فيها على رموز حروفية، وهذا مسلك قديم في تاريخ التصوف، وهو من الجوامع بينه وبين الدوائر الباطنية والإسماعيلية، ولكن الإشارة إلى "الوصي" في البيت الأول يميل بالناظم إلى الفكر الشيعي، والمرجَّح أنه في هذا السياق إسماعيلي أو نصيري، ولكن نسبة هذا الجفر أو الملحمة إليه هو أمر تسكت عنه كثير من المصادر، وابن خلدون نفسه يذكر قصائد من هذا الصنف لهج بها العامة في المشرق والمغرب تضاف إلى مثل ابن سينا وابن عربي، وهي منحولة عليهم بلا تردد؛ فيقوم الاحتمال، إذًا، أن تكون نسبت إلى الباجربقي كما نسب مثلها لسواه من شيوخ الفلسفة والتصوف.

وكان يمكن الشك في أن ابن خلدون يعني شهاب الدين الباجربقي على الخصوص؛ فإنه لم يعيِّن صاحب الملحمة بأكثر من نسبته: "الباجربقي" وأنه "رجل

(١) انظر: مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، جـ٢ ص٨٣٨

من الصوفية"، لولا أن تلميذه تقي الدين المقريزي (ت: ٨٤٥هـ) صرَّح بأنها لهذا الشيخ على التعيين وذكر شيئًا من سيرته وأحواله[1].

د- علاقته بالقلندرية:

يضيف ابن خلدون، بعد ما سبق، أنه سأل بعض العارفين بطرائق أصحاب الملاحم عن هذه القصيدة وعن الباجربقي، فقال له: "كان من القلندرية المبتدعة في حلق اللحية"[2]، وحكى له ولوع العامة بملحمته هذه، وزيادة الخرَّاصين عليها ما لم يكن في أصل وضعها.

وقد مضى أنَّ الحريرية، لا سيَّما ابن إسرائيل، كان لها نوع ارتباط بالقلندرية الناشئة بالشام يومئذ، ولا أقلَّ من تحسين ابن إسرائيل لأحوالهم والمحاماة عنهم، ثم يسوق ابن خلدون روايته هذه عن بعض مشايخ الحنفية أن الباجربقي، كذلك، كان من هذه الطائفة القلندرية؛ فالشواهد كلها، إذًا، تؤدي إلى تصور شيء من الترابط بين هذه الفرق الصوفية- الاجتماعية في القرن السابع.

على أن عبارة: "كان من القلندرية" تحتمل أن قائلها أراد تشبيه الباجربقي بهم لا أنه كان من أنفسهم، كما تحتمل أيضًا أنه كان منها قبل أن يستقلَّ بمسلكه الخاص.

- **أصحابه:**

انتسب إلى الباجربقي جماعة يتهمون بمثل ما اتهم به من ضعف الدين، أو التهكم بالنبوة، وقيل لهم: "الباجربقية"، وقد حفظت لنا المصادر أسماء ثلاثة اشتهروا بالانتساب إلى مقالة الباجربقي:

---

(١) انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٤١٨-١٩٩٧، جـ٣ ص٧٦

(٢) مقدمة ابن خلدون، جـ٢ ص٨٤١

١- **أحدهم**: ابن الهيتي، ناصر بن الشرف أبي الفضل بن إسماعيل، وقد ضربت عنقه سنة ٧٢٦هـ، نقل ابن كثير قول البرزالي: "كان قتله عزًّا للإسلام، وذلًّا للزنادقة وأهل البدع"(١)، وذكر أنه شهد مقتله بنفسه، وأن أبا العباس ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ) كان حاضرًا وقرّع ابن الهيتي على ما كان يصدر عنه، وفيه قيل:

يا أيها الهيتي، هيت إلى الردى! كم تجتري بلسان خِبٍّ هالك
أرسلت من حلب لجلَّق موثقًا ونقلت بعد الشافعي لمالك

٢- **والثاني**: عثمان الدكالي، الصوفي بالخانقاه السُّمَيْسَاطيَّة(٢)، قال الصفدي: "يتردد إليه الناس، ويجتمعون به، واستخفَّ بعضَ العوامِّ، وسلك شيئًا من الطرق التي تحكى عن ابن الباجربقي، وقال: "أنا أدلكم على الطريق إلى الله"(٣)، وذكر أنه خالف القواعد الشرعية، وأنه كان له أصحاب يتبعون أمره، حتى أقيمت عليه الشهادات بحاله هذه، وكان هو يقدح في الشهود، وانتهى أمره كصاحبه بأن قتل سنة ٧٤١هـ، بحضور الحافظين: جمال الدين المزي (ت: ٧٤٢هـ)، وشمس الدين الذهبي (ت: ٧٤٨هـ)، على معارضة بعض الفقهاء لذلك، ومنهم تقي الدين السبكي (ت: ٧٥٦هـ).

(١) انظر: البداية والنهاية، ط. التركي، جـ١٨ ص٢٦٦، وما كتبه الأستاذ كرد علي عن مقتل ابن الهيتي ونحوه وأنه أمارة على انحطاط ذلك العصر في: المقتبس، المجلد ٥، الجزء ١٠، مقالة: "الدرر الكامنة"، ص٦١١-٦١٤

(٢) دارٌ في دمشق وقفها على الفقراء أبو القاسم علي بن محمد السميساطي، المتوفى سنة ٤٥٣هـ، وإليه تنسب، انظر: الدارس في تاريخ المدارس، جـ٢ ص١١٨، ونصَّ النعيمي على أنها بمُهْمَلات، وإن كانت تقع في بعض المصادر بالشين المعجمة: "الشميشاطية".

(٣) الوافي بالوفيات، جـ١٩ ص٣٤٣، برقم: ٧٦٦٢

وعند ابن كثير أنه نودي بعد مقتله: "هذا جزاءُ من يكون على مذهب الاتحادية"[١].

٣- **والثالث**: يوسف بن موسى، بهاء الدين، قال الصفدي: "كان شابًّا ذكيًّا فاضلًا، وله شعر واشتغال ومحفوظ، ولازم ابن الباجربقي بعد ما تمفقر"[٢]، أي: في الدور الثاني من حياته بعد إقباله على سلوك الطريق الصوفي، وتوفي سنة ٦٩٩هـ.

* * *

(١) البداية والنهاية، جـ١٨ ص٤٢٣، وقد رُسِم اسمُه في هذه النشرة: "الدوكالي"

(٢) أعيان العصر وأعوان النصر، جـ٥ ص٦٧٠، وقد علق المحققون في الحاشية: ١ بأن الباجربقي هو عبد الرحيم بن عبد المنعم بن عمر، وليس كذلك، بل المقصود ابنه شهاب الدين محمد شيخ الباجربقية

الخاتمة

وفيها نتائج البحث

أثبت، في هذا الموضع، النتائج الآتية:

أولًا- شهد القرن السابع الهجري، في سياق تطور الحياة العقلية والروحية، ظهور منازع صوفية ذات طابع اجتماعي، ومنها: الفتيان، والقلندرية، والحريرية، والباجربقية، وقد اختصت هذه الدراسة بأقلها نصيبًا من الشهرة في الدرس الحديث، وإن لم تكن كذلك من الناحية التاريخية، وهما: الحريرية، والباجربقية.

ثانيًا- كان للحريرية والباجربقية جانبان: أحدهما- فكري، يتصل بطبيعة الأصول الصوفية التي أخذت بها، والآخر- اجتماعي، يتعلق بما تميزوا به من الزي الخاص وبعض الرسوم الظاهرة في مجامعهم ولاسيما السَّماع.

ثالثًا- تدلُّ النصوص القليلة المحفوظة عن كلتا الطائفتين أنهما من الناحية الفكرية أقرب إلى مبادئ تصوف وحدة الوجود، ربما كان ذلك أثرًا عن محيي الدين بن عربي وأصحابه، ولكن تظل النصوص أقلَّ من أن يستنبط منها مذهبٌ صوفيٌّ مكتمل.

رابعًا- من المرجَّح أن المِحَن التي أنزلت بكلتا الطائفتين، وما كان من شدة الفقهاء عليهما، ترجع إلى الجانب الاجتماعي لهما أوضح من رجوعها إلى الأصول الفكرية، فقد كانت الشام حينئذ موطنًا لكبار صوفية وحدة الوجود، ولكن اختصاص هذه الفرق بهيئة خاصة، وميل جموع من العامة إليها، وحُسْن ظن بعض الكبراء بها، ذلك كله ما أثار قلقًا ومخاوف من رواج هذا المسلك الفكري على أيديهم.

خامسًا- كان نجم الدين بن إسرائيل، الشاعر الكبير، من وجوه أصحاب الحريري، ومن الذين صاغوا منزعه الصوفي شعرًا، وحفظوا أخباره وأقواله، وليس بين

أيدينا من المنتسبين إلى الحريرية أعلى قدرًا، من الناحيتين الأدبية والفكرية، من ابن إسرائيل.

سادسًا– ثمة شواهد قليلة من الروايات التاريخية على ارتباط الحريرية والباجربقية بالطائفة القلندرية التي ظهرت بالشام في النصف الأول من القرن السابع، وهي شواهد قد تقويها بعض وجوه الشبه الظاهرية بين هذه الفرق، وإنكار الفقهاء عليها جميعًا.

سابعًا– اشتد نكير وجوه الفقهاء في ذلك العصر على الحريري والباجربقي ومن انتسب إليهما، حتى كان ابن الصلاح يدعو على الحريريِّ جهرًا في صلاته، وحتى أهدرت دماءُ كثيرٍ منهم، لِمَا رآه الفقهاءُ خروجًا عن الشرع، وانسلاخًا من أحكامه، فكانت هذه إحدى مظاهر اضطراب الصلة بين الفقه والتصوف، قبل أن تنتهي إلى شيءٍ من الوفاق في العصور الأخيرة.

مَصَادر المادَّة

* **ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي** (ت: **٨٧٤هـ**):

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي بمصر، ١٣٨٣-١٩٦٣.

* **التلمساني، عفيف الدين أبو الربيع سليمان بن علي الكومي** (ت: **٦٩٠هـ**):

- شرح مواقف النفري، تحقيق د. جمال المرزوقي، القاهرة، مركز المحروسة، ط. الأولى، ١٩٩٧.

* **ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي** (ت: **٧٢٨هـ**):

- مجموعة الرسائل والمسائل، تحقيق محمد رشيد رضا، نشر لجنة إحياء التراث العربي، د. ت.

* **الجامي، الملا أبو البركات عبد الرحمن** (ت: **٨٩٨هـ**):

- نفحات الأنس من حضرات القدس، ط. الأزهر، تصوير الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٠.

* **ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد** (ت: **٥٩٧هـ**):

- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، راجعه نعيم زرزور، بيروت، دار الكتب العلمية، ط. الثانية، ١٤١٥-١٩٩٥.

* **ابن حجر، الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد العسقلاني** (ت: **٨٥٢هـ**):

- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ط. مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، ١٣٤٩هـ.

- لسان الميزان، اعتنى به عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، ط. الأولى، ١٤٢٣-٢٠٠٢.

* **الحلاج، أبو المغيث الحسين بن منصور** (ت: **٣٠٩هـ**):

- الطواسين، تحقيق لويس ماسينيون، باريس، ١٩١٣.

* **ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد** (**ت: ٨٠٨هـ**):

– مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، القاهرة، دار نهضة مصر، ط. الثالثة، ١٩٨١.

* **الخوري، أمين:**

– جلاء الغامض في شرح ديوان ابن الفارض، بيروت، مكتبة الآداب، ط. الخامسة، ١٨٩٤.

* **الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان** (**ت: ٧٤٨هـ**):

– تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق د. بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط. الأولى، ١٤٢٤-٢٠٠٣.

* **السهروردي، شهاب الدين أبو حفص عمر** (**ت: ٦٣٢هـ**):

– عوارف المعارف، تحقيق د. عبد الحليم محمود ود. محمود بن الشريف، القاهرة، مكتبة الإيمان، ط. الأولى، ٢٠٠٥.

* **أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسي** (**ت: ٦٦٥هـ**):

– الذيل على الروضتين، تصحيح محمد زاهد الكوثري، عني بنشره عزت العطار الحسيني، بيروت، دار الجيل، ط. الثانية، ١٩٧٤.

* **الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك** (**ت: ٧٦٤هـ**):

– أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق الدكاترة علي أبو زيد، ونبيل أبو عمشة، ومحمد موعد، ومحمود أبو سالم، قدَّم له مازن المبارك، بيروت، دار الفكر المعاصر، ودمشق، دار الفكر، ط. الأولى، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

– الوافي بالوفيات، باعتناء أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط. الأولى، ١٤٢٠-٢٠٠٠.

* **ابن عربي، محيي الدين محمد بن علي الحاتمي الطائي** (**ت: ٦٣٨هـ**):

– ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق، ناظر طبعه محمد سليم الأنسي، بيروت، المطبعة الأنسية، ١٣١٢هـ.

– الفتوحات المكية: تحقيق د. عثمان يحيى، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، أربعة عشر سفرًا، نحو ثلث نص الفتوحات، ورمزت لها بالسفر: ف. طبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر، المقابَلة على طبعة الأمير عبد القادر الجزائريّ، سنة ١٣٢٩هـ، ورمزت لها بالجزء: ج.

* **ابن العماد، شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد الحنبلي الدمشقي (ت: ١٠٨٩هـ):**

– شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه وعلق عليه محمود الأرناؤوط، أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط، دمشق-بيروت، دار ابن كثير، ط. الأولى، ١٤٠٦-١٩٨٦.

* **العمري، ابن فضل الله شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت: ٧٤٩هـ):**

– مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، إشراف كامل سلمان الجبوري، بيروت، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ٢٠١٠.

* **العيني، بدر الدين محمود بن أحمد الحنفي (ت: ٨٥٥هـ):**

– عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، عصر سلاطين المماليك، جـ٢، تحقيق د. محمد محمد أمين، القاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٣١-٢٠١٠.

* **الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله (ت: ٧٠٤هـ):**

– عنوان الدراية، فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط. الثانية،١٩٧٩م.

* **ابن فهد، تقي الدين محمد بن محمد المكي (ت: ٨٧١هـ):**

– لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، دمشق، مطبعة التوفيق، ١٣٤٧هـ.

* **الكتبي، محمد بن شاكر بن أحمد (ت: ٧٦٤هـ):**

– فوات الوفيات، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مصر، مطبعة السعادة، نشر مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥١.

* **ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ):**

- البداية والنهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط. الأولى، ١٤١٨-١٩٩٧.

* **ابن المعمار، أبو عبد الله محمد البغدادي الحنبلي (ت: ٦٤٢هـ):**

- كتاب الفتوَّة، تحقيق الدكاترة مصطفى جواد ومحمد تقي الدين الهلالي وعبد الحليم النجار وأحمد ناجي القيسي، بغداد، ١٩٥٨-١٩٦٠.

* **المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت: ٨٤٥هـ):**

- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٤١٨-١٩٩٧.

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق د. أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان، لندن، ٢٠٠٢.

* **المناوي، زين الدين محمد عبد الرءوف (ت: ١٠٣١هـ):**

- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، الطبقات الكبرى، تحقيق محمد أديب الجادر، بيروت، دار صادر، ١٩٩٩.

* **النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت: ٩٧٨هـ):**

- الدارس في تاريخ المدارس، أعد فهارسه إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٤١٠-١٩٩٠.

* **النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت: ٧٣٣هـ):**

- نهاية الأرب في فنون الأدب، بيروت، دار الكتب العلمية، ط. الأولى، ١٤٢٤-٢٠٠٤.

* **اليونيني، قطب الدين موسى بن محمد البعلبكي الحنبلي (ت: ٧٢٦هـ):**

- ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، ط. الأولى، ١٣٧٤-١٩٥٤.